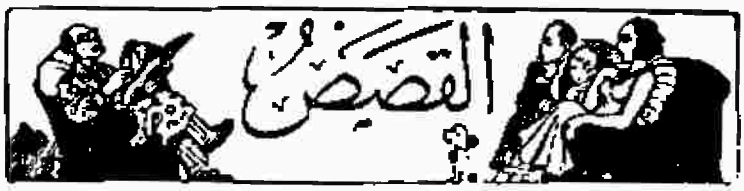

قصة مصرية :

« من وراء الأبد »

للأستاذ أنور المعداوى

(لمل الذين يهمون القصة على خير ما تهم القصة على أنها لوحة نفسية ، وظلال إنسانية ، وفكرة من أعماق الحياة) .

يا صديقي العزيز :

تسألني عن هذا السر الذي أثار فضول الناس ، سر زواجي الذي لم يدم ؟.. ولم لا تقول إنه أثار فضولك أيضاً فكتبت إلي تسألني !! ومع ذلك فسأكشف لك عن سري الذي أصبح ذكرى ... كل ما أرجوه منك أن تحتفظ بهذه الذكرى الغالية كما احتفظت بغيرها من ذكريات شبابنا . فلا تدعها إذن تترك مكانها من قلبك ، حسبها أنها تركت مكانها من قلبي ... لنقص عليك وحدك قصة الحرمان !

أتذكر يوم كنت تسخر بأني إنسان أضاع عمره عاكفاً على أجنحة الخيال يرتاد عوالم مجهولة ، ويطرق آفاقاً لم يطرقها مخلوق على أرض البشر ؟! . أنا معك يا صديقي في أنني كنت وما أزال ذلك الإنسان الذي يقف على الأرض كما يقف غيره من الناس ، ومع ذلك فهو يمد يديه إلى السماء ليلتقط النجوم ! .. لقد كنت أعيش في دنياي الخاصة وكنت تعيش في دنياك ، وعلى الرغم من هذا التناقض فقد التقينا حول مائدة العلم في الجامعة ، لقاء شب من لحظاته الأولى بين أحضان الصداقة ... وكانت صداقة بريئة حلوة ، لم يمكر صفوها بعد الشقة بين طبعي وطبعك ، وبين مزاجي ومزاجك . أنت في أعماق الواقع وأنا في أعماق الخيال ... ومع ذلك فقد التقينا في الجامعة ، وتركناها ذات يوم إلى الحياة ، وظللنا كما كنا صديقين !

وفرقت بيننا بعد ذلك الأيام . بقيت أنا في القاهرة وذهبت أنت إلى أطراف الجنوب ... واختلف طريقي وطريقك ألم نكن دائماً في نظرتنا إلى الحياة مختلفين ؟! لقد فضلت العمل في وظائف الحكومة وآثرت العمل الحر ... أتذكر يوم خطر لي أن أفتح محلا لبيع الزهور في حي الزمالك ؟ إنك رميتني بما كنت ترميني به دائماً يوم كنا في الجامعة ... بالزق والطيش والجري وراء الخيال ! لقد كنت تقول لي بلهجتك الساخرة الحبيبة : زهور ؟ يالك من شاعر ! ماذا تجني من وراء الزهور يا حليف الخيال ؟.. ستذبل زهورك يوماً ما ، وستمشي وحدك في جنازة العطر !! ومضيت في طريقي لا أكاد أصغي إلى سخرياتك . ففتحت المحل ، وربحت الكثير من المال ، وانتصرت بسلاح الخيال في أول معركة خضتها ضد الخيال !.. ومع ذلك فإن كلماتك لا تزال ترن في أذني رنينها بالأمس ، ترى أكنت تقرأ صفحة الغيب سطوراً خطها لي وحدي يد الزمن ؟ أم أنك يوم أطلقت جملتك تلك الساخرة كنت تنفذ بوميك الباطن إلى ما وراء المجهول ؟!.. لقد ذبلت زهوري يا صديقي ، ومشيت وحدي في جنازة العطر ، والأمل ، والدنيا التي ذهبت إلى غير ميعاد !

أتذكر يوم كنت ترغبني في الزواج وتقود أفكاري إلى حواء ؟ لقد كنت ألقاك دائماً بجواب واحد هو أنني لم أجدها ! إن الذين يعيشون في دنيا الواقع ترضيهم نفحات من الجمال المادي المشهود بالأرض ، أما أنا فكنت أبحث عن جمال آخر — جمال تربطه بالسماء خيوط إلهية غير منظورة ! إن جمال الروح يا صديقي هو الذي كنت أبحث عنه ، وحين يئست من وجوده على أرض البشر رحت أنشده في سماء الوهم ! لقد كنت ألتمس في الزهور شيئاً من العزاء — رائحتها ، نضارتها ، ألوانها البهيجة — أليس في هذا كله بعض ما كنت أنشد من جمال الروح ؟ هل تصدق أن هذا الخاطر هو الذي حملني على أن أفتح محلا لبيع الزهور أنسقه بذوق الشاعر وخيال الفنان ؟ ! — بالله لا تدع الابتسامة ترف على شفتيك ، فقد تستحيل في عينيك دموعاً ! !

لعلك تستحثني على أن أبدأ القصة ، فاستمع إذن لقصتي :

كان أول لقاء بيني وبينها ذات صباح ، حين هبطت من غرفة التاكسي ودلفت إلى المحل تطلب باقة من الزهور ... ولأول مرة رأيتني أترك مكاني ، وأسبق أحد عمالي إلى لقائها ، وأقدم لها بنفسي باقة من زهور البنفسج غلفتها — كما طلبت — بزهور البانسيه ، ونظرت إلى الفتاة نظرة امتنان ، وتمتمت ببضع كلمات شكر ... وخرجت !

كان مظهرها ينم عن حزن عميق ، تجلى واضحاً في قسمات الوجه ونبرات الصوت ... وخيل إلى أن هناك عزيزاً قد فقدته ، وأن تلك الزهور قد أعدت لتوضع فوق القبر الذي ألف أحلام شبابها بثلاث من الصمت الأبدي الرهيب ، هناك حيث تقفز من كوى الفناء أشباح وطيوف ! أما جمالها فكان فريداً في نوعه ... لم يكن جمالاً صارخاً يهز العيون حين تنظر إليه ، ولكنه كان جمالاً هادئاً ، معبراً ، يهز مسارب الروح والعاطفة ... كان أشبه بقطعة موسيقية حزينة يتغزى لإيقاعها الفكر الحائر والشعور الملتاع ! ... أما عيناها ، فقد كان فيهما أكثر من معنى مبهم ، لقد كان فيهما يا صديقي آثار رحلة طويلة إلى عالم مجهول ... وفي هذا اللقاء الأول رثيت للجمال يذبح في الربيع بوشاح الأسى والشجن ! وتكرر بعد ذلك لقاؤنا في موعد لا يتغير ... في الساعة العاشرة من صباح كل ثلاثاء ، حين تهبط من عربة التاكسي ، تلك الزائرة الحزينة لتطلب كعادتها باقة من زهور البنفسج أغلفها كعادتي بزهور البانسيه ! وعلى مر الأيام نشأ بيننا نوع من الود البريء تحول سمه الرقاء في قلبي إلى حب عميق ... وجاء على يوم شعرت فيه بأن أحلامي الحيرى في خضم الحياة ، تلك التي شلت طريقها في متاهات الخيال السابح وراء الوهم قد وجدت ملاذها هنا ... في هذا الوجه النبيل الذي شعت منه في روحي ومضات الأمل ! !

سألت عن أسرتها فعلمت أنها من أكرم الأسر ، وسألت عن قصتها فعلمت أن خطيبها الشاب قد ودع الحياة منذ شهور ، وأن هذا الأسى الدفين هو كل ما خلف لها من ثروة أثقلتها الأحزان ... وفكرت في غير تردد بأن أتقدم لخطبتها لأملأ فراغ قلبها ودنياها وفراغ قلبي ودنياي ، وخيل إلي أنني قد وجدتها ... حواء ، تلك التي قضيت العمر أبحث عنها في سماء الوهم حتى لقيتها أخيراً على أرض البشر !

وفي وجلب الزوجة الحبيبة ذقت — لأول مرة — طعم الحياة ... كانت الحياة قبل أن ألقاها أشبه بفكرة شريدة معذبة لم تجد دفء خاطر تأوي إليه ! كانت لحناً حائراً لا معنى له ... لحناً تبذته شفتاي حين لم تستجب لأنغامه في حنايا الضلوع عاطفة ! كان الوفاء والحب والحنان التبادل هي كل معالم الطريق الذي سرنا فيه جنباً إلى جنب ، وقلباً إلى قلب ، وروحاً إلى روح ... كنت أنسى كل متاعب الحياة حين تلقاني وعلى شفتيها ابتسامة بشوشة ، وفي عينيها بريق المودة من لقاء طويل ، هيأته الأحلام تحت ظل وريف في واد من أودية السعادة !

ومضت بنا الحياة في طريقها تطوي الأيام حتى أقبل يوم لا أنساه ... كان ذلك حين خرجت من البيت ذات صباح ، ثم عدت إليه بعد ساعتين لأمر من الأمور فلم أجدها هناك ! سألت عنها الخادمة الصغيرة فأنبأتني بأن سيدتها لم تعين لها المكان الذي ذهبت إليه . وساورتني الظنون وانتابني شك قاتل ملح عنيف ... ترى أكانت زوجتي تترك البيت قبل اليوم أثناء غيابي عنه ؟ ! عدت إلى الخادمة الصغيرة أسألها فأنكرت ، وتحت الضرب المبرح لم تجد بداً من الاعتراف ، وأصبح الظن حقيقة ... سيدة محترمة تغادر بيتها مرة في كل أسبوع إلى حيث لا يعلم أحد ، ترى ما ذا يخبئ لي القدر القاهر في جعبته ؟ ! ورحت أذرع أرض الشرفة ذهاباً وجيئة في انتظار الزوجة الغائبة ... وفي غمرة الوهي الداهل والفكر المهموم ، لم أدر كم من الوقت مر علي وأنا أتلفت إلى كل عربة مقبلة من هنا أو من هناك ، مترقباً أن تكون قد عادت بها من المكان المجهول !

وأخيراً أقبلت عربة تاكسي ما لبثت أن هدأت من سرعتها ووقفت أمام البيت ... وهبطت منها زوجتي ! وأسرعت كالمجنون أهبط الدرج وثباً حتى كنت في ثوان معدودات أمامها وجهاً لوجه ... وحين رأيت لونها قد شحب ، ونظراتها قد عراها الذهول ... رحت أسأل السائق عن المكان الذي ركبت منه ... وفي صوت هامس متلعثم أنبأني الرجل بأنه قد عاد بالزوجة الحبيبة من مقابر الإمام الشافعي !

وصعدنا إلى البيت صامتين ... وحين احتوتنا إحدى حجراته رحت أنظر إلى عينيها الشاردتين ، محاولا أن أستكشف سرها المخبأ وراء قطرات الدموع !

أما هي ، فقد أطرقت برأسها إلى الأرض ، وراح صدرها يعلو ويهبط ، وجسدها ينتفض انتفاضة الحمى ...

وأخيراً أمسكت يدي بين يديها لتقول لي بصوتها اللاهث المتهدج :

— محمود ... يا زوجي الحبيب ... إغفر لي أن أقول لك كل شيء ... أقسم لك ... أقسم لك أني كنت أضع بعض الزهور على قبره ... لقد عاهدته أن أظل وفية لذكراه ... لقد أقسمت له يوماً أن أظل على عهدي له ... كان ذلك حين ودع الدنيا وتركني من بعده وحيدة ... محمود ... إن قلبي الذي كان له أصبح لك ... حسبك قلبي ... بالله لا تضق بأفكاري إذا اتجهت إليه لتؤنسه في وحشته ... وبيدي إذا وضعت يوماً على قبره زهوراً ترطب ثراه ... محمود ... هل تغار من رجل مات ؟ ... تكلم ... تكلم يا زوجي الحبيب واغفر لي ... اغفر لي أني لم أبع لك قبل اليوم بشيء ! !

حاولت أن أتكلم فاتت الكلمات على شفتي ... كنت كمن أفاق إغفاءة طويلة استيقظ من بعدها على حلم مخيف بعث رجفة الفزع في أوصاله !

ولأول مرة شعرت بأن أشباح الشقاء ترفرف على المكان بأجنحتها السود فتحيل النور في عيني ظلاماً ...

وتركتها تنتحب وعدت إلى غرفتي مكدود القوى ، أشبه بجندي عاد إلى بيته بعد المعركة ... عاد ليبحث عن أحبابه بين ركام الأنقاض !

ومرت على ليال لم أذق للنوم فيها طعماً ... حاولت أن أنسى وأن أغفر ولكني لم أستطع ! لقد تكشفت لي الحقيقة الكريهة البشعة ، وهي أن زوجتي لم تكن صادقة في حبها لي ... لقد كان قلبها هناك ، يمسح بيد الذكريات فوق القبر الذي طوى بين جنباته أول أمل !.. سبع ليال مرت على كأنها سبعة ذئاب جائعة تنشب أظفارها في قلبي ، كنت أشعر شعوراً عميقاً أن هذا القبر الرابض في صحراء الإبام قد سلبني أعز ما أملك ، وأن هذا الفتى المسجى في جوف الثرى لص ... ضل طريقه إلى بيوت الناس وقادته قدماه إلى بيتي وحده ، ليسرق أنفس كنز وهبته لي الحياة !

وكلما نظرت إلى وجه زوجتي بدت لي الدنيا جحيماً لا يطاق ، لقد عاد إلى سابق عهده يوم رأيتها لأول مرة : الحزن العميق والأسى الدفين ! أما عيناها فقد أطل منهما الماضي البعيد ... حار فيهما ألف معنى مبهم أو ألف رحلة طويلة إلى عالم مجهول !

ومر شهر وشهران وثلاثة وكلانا يعيش في العذاب ... العذاب الملح المبرح المتصل الذي تراودني أشباحه الرهيبة في الليل والنهار ، وتقذف بي إلى خارج بيتي أنشد العزاء في الجلوس إلى الناس ! لم أعد أطيق رؤية البيت إلا حين آوي إليه لأنام ، لا تجمع بيني وبينها كسابق عهدنا حجرة واحدة ... كان الخيال يصور لي أن هناك حاجزاً هائلاً يحول بين ضم جسمينا في فراش واحد ، هو ذلك القبر الكئيب البغيض الرابض في صحراء الإبام . القبر الذي كان يخيل إلي أنه يترك مكانه كل ليلة لينعم بأحضان زوجتي حتى الصباح !!

ولم يكن هناك يا صديقي بد من أن نفترق ... ترى هل جنى على الخيال ؟ است أدري !.. كل ما أدريه أن حواءه قد ذهبت ، وأن زهوري قد ذبلت ، وأني قد طويت القلب على أحلامه وقذفت به بعيداً ... بعيداً في وادي الذكريات .

أنور العطراوي

الأســـلوب القوي

والاستيعاب الموجز

والتحليل المفصل ، والاختيار الموفق

والمقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

كل ذلك تجده

في تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

اطلبه من دار الرســـالة ومن المكاتب الشهيرة في مصر والخارج وثمنه ٤٠ قرشاً

خوفاً من أبيـــه !

وأخيراً تهالك « خالد » على مقعده فى قنوط وقد أيقن أنه فقد ساعته ، فلم يترك مكاناً إلا بحث فيه ولا صديقاً إلا سأله عنها

وبالرغم من أن حجرته خالية إلا من أجلاد جسمه ، هادئة إلا من دقات قلبه ، فإن طيفاً فارع العود منقبض الأسارير راح يحدق فيه مستخفاً بذكائه وعلى شفتيه ابتسامة تهكم وفى صوته نبرة ازدراء ! !

وخرج من الغرفة إلى عرض الطريق ضائعاً بذلك الطيف الذى أعاد إلى خياله صوراً كالحة لتلك المواقف التى تكون بينه وبين والده حين يفقد أحقر حاجاته !! ..

واستقبله الشارع على غير ما تعوّد . لقد بدا له كالرسوم الحائلة فى كراس عتيق ! وكأنما أصوات المارة لضعفها تصل إلى أذنيه من بعيد ...

وعجزت أضواء الطريق الألاقة ومعروضات المحال الغربة أن تخرجه عن نفسه أو تبعث إليها شعاعاً من أنس ..

ولكن محلا لبيع الساعات فى نهاية الطريق استطاع أن يخترق بأضوائه نطاق كآبته ، وأن يستوقفه أمام معرضه ، وأن يتملق نظراته الموزعة بمرأى ساعاته الجذاب ...

وأخذت عيناه فى لمحة ساعة تشبه ساعته فى الحجم والغطاء ، وإن كانت دونها فى الثمن والرواء !

وهنا افتر ثغره ليبارك فكرة رائعة تفتح عنها ذهنه المضطرب . إن والده لا يستطيع أن يدرك الفرق الداخلى بينهما ؛ وسيكفى شراؤها لتعود المياه إلى مجاريها ...

ولكن سرعان ما شعر بخيبة مرة تحاذل لها قدماه وانطبقت شفتاه على حطام ابتسامة ... الشراء ؟ ! إن ما معه من المال لا يبقى منه إذا اشترى الساعة ما يسد عوزه إلى أن تبدأ الإجازة التى سيرجع فيها إلى قريته ...

وهنا مرت أمام عينيه صور متلاصقة لتلك المواقف التى تكون بينه وبين والده حين يفقد شيئاً من أشيائه ، ثم تذكر فى مرارة زوجة أبيه وهى تقترض تلك المواقف لتملأ عينيها الوقحة بمنظر دموعه القليلة وهى تتلمس طريقها على خده الشاحب الهزيل !

وهنا وجد نفسه مدفوعاً إلى شراء تلك الساعة ، هازئاً من آلام الحرمان التى سيلاقيها مادام يقاسيها وحده ولن يطلع عليها سواه !

وبعد أسبوع كانت مائدته قد سئمت تلك الوجبات الخشنة ، ومعدته قد عافت تلك الأكلات النائية . وكان قد تعود أن يسمع رفاقه يتساءلون من تلك الصفرة التى تغطى وجهه والإعياء الذى يحد نشاطه ! واستطاع أن يجيب رفاقه بما تعود من لباقة ، وأن يتحمل الألم بما انفطر عليه من صبر ..!!

ولكننا نرى نفسه القوية تنهار فى يد الألم وتتخاذل فى حلبة الصراع مع الأقدار ، حين يطلب ناظر مدرسته إلى كل طالب أن يتبرع بعشرة قروش للنشاط الرياضى بالمدرسة ! !

لقد شعر بأن القدر يتحداه ويسخر من إيمانه بكرامته ! !

إنه لا يستطيع أن يتنكص عن دفع هذا المبلغ لشهرته الرياضية بالمدرسة، ولا يستطيع أن يدفعه إلا إذا قدر أن يبقى يومين بدون طعام

وتحامل الشجاع الجريح على نفسه وصوّب إلى صدر القدر آخر سهم من كنانة صبره وإيمانه ...

وفى اليوم الذى ابتدأت فيه إجازته كان يسرع على إفريز المحطة ليلحق بالقطار المسافر إلى قريته ...

وفى إحدى عربات الدرجة الثالثة ألقى بجسمه المنهوك وجعل يستعرض آلامه المضنية التى مرت به ، وكأنه جندى مثخن يشفى غليله بمرأى قتلاه فى الميدان !

واختلجت على شفتيه ابتسامة باهتة كانت تسترجع شجاعته وتستنهض أمله وترف إليه كرامته فى إطار من الثقة ...

وسمع صوتاً يهتف من أعماقه : مرحى أيها الجندى الباسل ! لقد آن لك أن تلقى الجزاء ! ! ولكن أى جزاء يا ترى ؟ ؟

لقد راح يتخيل موقف والده منه وقد علم بفقد ساعته وطفق ينحى عليه بألوان من القسوة وضروب من العنف لتكون فرحته أشد حين يعلم أن شيئاً من ذلك لن يحدث ! ! وازدادت البسمة وضوحاً حين غادر القطار إلى بيته فى أقصى القرية ، كأنما استردت نشاطها من طول ما قامت على شفتيه ...

وفى حجرة من حجرات البيت وقف يقبل يد والده قبلة آلية ، ثم رفع رأسه ليرى وجه والده ، وكأنما غادر حجرته بالمدينة منذ أسابيع ، وسمعه يقول وعلى شفتيه ابتسامة تهكم وفى صوته نبرة استخفاف : ما هذا الفحول الذى لا ينفك مستولياً عليك ؟ كيف نسيت أن تأخذ ساعتك وأنت مسافر ؟ !

محمد أبو المعاطى أبو النجا